

العلوم المساعدة للتاريخ "الجغرافيا نموذجا"

ميسوم بلقاسم: أستاذ محاضر أ
كلية العلوم الاجتماعية
جـــامعة بسكرة

الملخص

ترتبط العلوم الإنسانية والاجتماعية ارتباطا وثيقا فيما بينها، ورغم أن فكرة التخصص الدقيق عرفت مرحلة هامة من تاريخنا المعاصر إلا الواقع أثبت ضرورة دراسة العلوم دون فصل تخصص عن آخر ، ومن العلوم التي تحتاج لتخصصات أخرى " التاريخ" الذي تفسر أحداثه وفق مدارس متعددة لمعرفة تطوراته ووضعها في سياقها الزماني والمكاني مع الأخذ بعين الاعتبار المؤثرات الفكرية في الكاتب، وإن كانت هذه الأخيرة تتمايز بين مؤرخ و آخر فإن الثابت أن علم التاريخ يرتبط بمتغيرات كثيرة ومنها الارتباط بعلم الجغرافيا؛ هذا الأخيرة التي يعتبر ميدانا للأحداث وموجها له، وما يطرح نفسه في هذا المقام حول مدى أهمية و تأثير الجغرافيا في تطور الأحداث التاريخية؟

الكلمات المفتاحية: العلوم المساعدة , الجغرافيا، الزمان, الأقاليم المناخية, المكان,الاقتصاد.

Abstrect

The social and human science are related together and can’t be separated from each other, the relativity existent between sciences was proved by history that shows its events according to many schools which gives us the ability to know its evolution and making it in its their temporal and spatial context.

Taking by consideration the writer's ideology which differs from historian to an other, the certain thing is the science of history it related to many changes and the place is one of them which is consider as a field of events. And the question which asks itself is about the importance and the influence of the place on the historical event.

مقدمة

إذا كانت العلوم الإنسانية والاجتماعية مترابطة فيما بينها ولا يمكن فصل تخصص عن آخر، فإن للتاريخ مدارس وتوجهات لتفسير أحداثه ووضعها في سياقها التاريخي، وإن كانت مدارس التاريخ تختلف في الرؤى فإنها تتفق في كونها تعتمد على علوم مساعدة ومن هذه الأخيرة علم الجغرافيا الذي ترتبط به فروعا أخرى مثل علم السكان والاقتصاد...

إن التاريخ والجغرافيا متلازمان في الزمان والمكان ،فإن كان التاريخ أحداث، فإن الجغرافيا زمان ومكان تلك الأحداث،مما يؤدي إلى توجيه حياة البشر،هؤلاء الذين يتأثرون بالبيئة الجغرافية ويصنعون التاريخ إيجابا أو سلبا ويسهمون في الحياة الإنسانية ، وما يطرح نفسه في هذا المقام حول مدى أهمية و تأثير الجغرافيا بأبعادها في الأحداث التاريخية؟

الإنسان ابن البيئة الجغرافية

ينقسم الإنسان إلى أجناس مختلفة ،ينتمي كل منها إلى بيئته الجغرافية وظروفه الطبيعية التي تشكل له خواصه الفيزيقية والفكرية.ولكل جنس من هذه الأجناس نمط تربطه بسائر الأجناس البشرية الأخرى الخواص الثابتة الدائمة للجنس البشري برمته .وهذه الخواص البشرية المشتركة لا تعتمد على عوامل البيئة ،وإنما هي خواص فطرية جبلية ،تماما مثلما هي الحال في عالم النبات ، فمهما شتل نبات معين في بيئات مختلفة ،يظل محتفظا بخواصه الأولى رغم تباين الظروف البيئية التي يتنقل إليها،على أن استجابات الحس والتصور عند مختلف الأجناس استجابات متباينة،فلكل جنس تصوره الخاص،عن السعادة ولديه مثالياته الخاصة به حوفي وسط هذا التباين المزاجي والبيئي ينبثق نمط أعلى من الكائنات الآدمية ،ذلكم هو الكائن التاريخي؛ بمعنى أن واحدا من هذه الأجناس المتعددة ،بدلا من أن تظل حياته تدور في دورات يتطور مع الزمن إلى نمط أسمى وأرقى حضارة.وقد خص الألماني " هردر، يوهان جوتفريد فون (1744 - 1803م)" قارة أوربا بهذا الفضل من السمو،فنسب إليها كل الخصائص التي تبرز نماء الحياة الإنسانية تاريخيا،فصارت – عنده – "الأرض المختارة" للحضارة ، مثلما كان الإنسان هو الكائن "الممتاز" أو الأعلى من بين سائر الكائنات.[1]

الاقتصاد و النمو الحضاري:

يعتقد ابن خلدون(1332 - 1406) أن النمو الحضاري للجماعة لا يتم إلا بالصناعة ،فهي المعيار – عنده- في الحكم على التقدم والنماء والحضارة:"والسبب في

ذلك ظاهر، وهو أن هذه كلها عوائد للعمران.والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال.وإذا استحكمت الصبغة عَسِرَ نَزْعُهَا.ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة، لمّا تراجع عمرانها وتناقص ،بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران،ولو بلغت مبالغها في الوُفُورِ والكثرة وما ذلك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مُسْتَحْكِمَة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتَكَرُّرِهَا، وهذه لم تبلغ الغاية بعد.وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد، فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مُسْتَحْكِمَة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها، كالمباني والطبخ وأصناف الغذاء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء، وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين، وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده، فتجدهم أقوم عليها وأبصر بها، وتجد صنائعهم مستحكمة لديهم، فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار.[2] إن كل ما ذكره صاحب المقدمة فيما ذكرنا آنفا ينطبق حاليا على علم الجغرافيا ،وهذا الأخير نراه مستحكما في حياتنا اليومية الحالية فما بالك في الدور الحضاري للصنائع في قيام وسقوط الأمم .

كما يرى ابن خلدون بأن زراعة الأرض هي حرفة المستضعفين:"وذلك لأنه أصيل الطبيعة وبسيط في منحاه ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر في الغالب، ولا من المترفين ،ويختص منتحله بالمذلة...والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم واليد العالية ،فيكون الغارم ذليلا يائسا، بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة".[3]

إننا لا نميل إلى ما ذكره في هذا السياق من كون الزراعة يمارسها المستضعفون، وربما ابن خلدون ذكر ذلك من خلال ملاحظة عايشها بنفسه في زمن معين وفي بقعة جغرافية معينة ،وبالتالي فهي ليست قاعدة بل استثناء ؛ففي وقتنا الحالي نجد أن الزراعة يسيطر عليها الأقوياء ويعتبرونها أمنا غذائيا فتحولت إلى سلاح تشهره الدول القوية في تصدير محاصيلها بالثمن الذي تريد والوقت الذي ترغب، كما أنها حرة في تقديم مساعدات زراعية للدول الضعيفة.

الرقعة الجغرافية للدول وأثرها في قيام وزوال الدول

إن تدهور الحضارات - عند ابن خلدون- ينتج عن اتساع رقعة الدولة مما يحول بين الحاكم وفرض سلطانه على الأجزاء النائية ،ويكمن أيضا في كون القبائل الغازية أقل حضارة من أهل الأراضي المغلوبة ،وفي الخلافات المستحكمة بين الملوك و

أنسابهم من البيت الواحد ،وفي اعتياد الغزاة حياة الترف والدعة فيفقدون بهذه الصفات القبلية الأصيلة والخشونة العسكرية القديمة،فيركنون إلى حياة الترف والملذات،ومن بين العوامل الهامة أيضا إثقال كاهل المحكومين بالضرائب أو "الجباية".[4]

إن اتساع مساحة الدول وزوال الحضارات ينطبق على كثير من الدول ومن ذلك الإمبراطورية العثمانية التي اتسع مجال نفوذها الجغرافي بين ثلاث قارات(إفريقيا-آسيا- أوربا) واختلاف شعوبها في العادات والتقاليد والمعتقدات ....كلها أسباب ساهمت في سقوطها،ونفس الشيء ينطبق على الإتحاد السوفياتي الذي تفكك إلى دولا مستقلة.

وما نلاحظه في بلادنا العربية المعاصرة من محاولات (داخلية وخارجية) لتقسيم المقسم(مسلمين وغير مسلمين) وتجزيء المجزأ(سنة وشيعة) وتفتيت المفتت (محاولات تقسيم ليبيا) ...كلها أمّارات على أن الرقعة الجغرافية للوطن العربي تمر بمرحلة تاريخية حرجة لا بد أن نوظف التاريخ لتفادي أخطاء الماضين من الأمم.

غير أنه وجب التنبيه إلى أن كثيرا من القوانين التي انتهى إليها ابن خلدون عن التاريخ لا تكاد تصدق إلا على بعض المجتمعات التي لاحظها،ودوّن سيرتها،وهي على الخصوص شعوب العرب والبربر،وقد ظن الكاتب أن استقراءه على ما لاحظه في هاتين الأمتين يصدق على جميع مجتمع وفي كل زمان. والشاهد من الوقت الراهن أن شعب الولايات المتحدة الأمريكية رغم الاختلافات الموجودة بين أفراده إلا أن تلك الدولة وكما نراها سيدة على العالم،كما أن شعوب أوربا قد خطت أشواطا هامة للوحدة.

وعليه فاتساع الرقعة الجغرافية والتعدد الإثني ....ليست بالضرورة عوامل نهاية الدول بل أحيانا تكون عوامل وحدة .

الظروف الجغرافية والمناخية ودورهما الحضاري

التفسير البيئي

يعتقد من يفسر التاريخ على أن الظواهر الطبيعية من مناخ وتضاريس وثروات طبيعية هي التي تشكل مقدرات البشر العقلية والاقتصادية والأخلاقية فتوجه بذلك التاريخ .ولنابليون بونابرت (1769م-1821م) في هذا الصدد مقولة مشهورة وهي:"أن سياسة الدول تكمن في جغرافيتها".

يقول هؤلاء البيئيون أن المناخ ذو تأثير مباشر على الجسم والعقل ،وأن الجغرافيا الطبيعية هي التي تتحكم في سير الحوادث وتقبض على ناصية التاريخ،ويستشهدون

بعدة حوادث طبيعية بارزة كان لها الأثر الفعال في هذا المجال.فهزيمة الأرمادا الإسبانية في عام 1588م،وهزيمة نابليون بونابرت في سهوب روسيا عام1812م وهتلر(1889م-1945م) بعده في 1941 تعود كلها إلى عوامل جغرافية مناخا وتضاريسا.

يعد"مونتسكيو"(1689-1755) [5] الاسم اللامع في الغرب لما ينسب لأفكاره من دور كبير في التمهيد للثورة الفرنسية وهو من أبرز القائلين بهذه النظرية.ولا ريب في ذلك فالرجل من أوائل طلائع الماديين في العصر الحديث ،ومن أوائل الذين ربطوا الاقتصاد بعجلة التاريخ ،وإن لم يكن أولهم في هذا المجال الأخير.

ربط"مونتسكيو"بين البيئة وتشكيل الاقتصاد ،وبيّن من ثمة دور الأخير في صناعة التاريخ ،ونأخذ على "مونتسكيو"خاصة في هذه الفترة التي ألّف فيها كتابه الشهير"روح القوانين" [(6)] أنه ،وهو يبلور نظريته لم يمتد فكره خارج نطاق فرنسا ومشكلاتها ،ولم يعتمد في مصادره سوى على التراث اليوناني الروماني.

أقام "مونتسكيو"نظرية عن الحكومة والقانون ليبرهن للفكر الأوربي أن مؤسسات الدولة تبنى على ظروف البيئة التي يعيش البشر في أكنافها ،وأن الظروف الطبيعية والإيكولوجية المتمثلة في الموقع والمناخ والتربة ونحوها تؤثر بشكل مباشرعلى كافة النشاطات البشرية من قوانين وفن وأساليب إنتاج وتجارة ومهن وحرف،كما توجه أيضا العادات والتقاليد والأخلاق والقيم.فكل هذه المسميات المادية والعقيلة هي نتاج البيئة ،وروح القوانين هي العلاقات الضرورية التي تنشأ عن طبيعة الأشياء. [7]

"بودون"و"مونتيسكيو" والتفسير التنجيمي

اعتمد "مونتسكيو"في هذا الصدد على نظرية قديمة قال بها "أرسطو"(384ق م – 322 ق م) ثم اعتمدها" بودون"(1530-1594) وطورّها في كتابه الجمهورية أو الدولة(1590).ألصق"بودون" من خلال اعتقاده الساذج بالنجامة صفات أخلاقية بأهل الشمال ،وأخرى مناقضة لها بأهل الجنوب.أما أهل الوسط(جغرافيا)الذين ينتمي إليهم فقد فضّلهم على كلا العنصرين الشمالي والجنوبي تفضيلا.ففيهم- على حد تعبيره- يحدث التمازج المفضى إلى الوسطية.

استشهد"بودون" الذي اعتمد التاريخ الأوربي أيضا بكون الدول الكبرى في التاريخ قامت في هذا النطاق الوسط الذي هو مهد السياسة.ولم يربط"بودون" نظريته بالبيئة بشكل مباشر،إنما ربطها بالنجوم والكواكب وبالمناطق شمالا وجنوبا ووسطا.فأهل الشمال –كما يقول- يقعون في دائرة المريخ(إله الحرب في الأساطير

اليونانية)وفي دائرة القمر كذلك، وهذا ما جعلهم بطبيعتهم ميالين للحرب والقنص.أما أهل الجنوب فيقعون تحت تأثير زحل والزهرة (فينوس إله الحب والجمال)ولهذا نراهم مسترسلين في التأملات منقادين للشهوات.أما أهل المنطقة الوسطى(يقصد أوربا) فهم تحت تأثير المشتري (جوبتر رئيس الآلهة) و عطارد، وهذا ما جعلهم يتمتعون بالإرادة السياسية.

استهوت هذه النظرية فكر"مونتسكيو"فقال بها مع تغيير شكلي طفيف، فقد استبعد الرجل بعلمانيته نجامة "بودون"واستبدلها بالبيئة وثبت على هذا التفسير في مؤلفه"روح القوانين" الذي وضعه في إحدى وثلاثين كتابا، وقد اهتمت هذه الكتب من الثالث عشر إلى السابع عشر بأثر المناخ على النشاط البشري، وعلى الحكومة، وعلى العبودية وأفكار الحرية السياسية، أما الكتاب الثامن عشر فقد اهتم بأثر التربة في هذا المجال.

نسب "مونتسكيو"كافة المميزات الإنسانية الخيّرة لأمم الشمال ،وأضاف بأن سكان البلاد الباردة يمتازون بكثرة الفضائل وقلة المفاسد وعدم الأنانية .أما حين نتباعد إلى الجنوب نتباعد عن صفات الخير وكرم الأخلاق حتى ننتهي إلى أمم تنقصها روح الاحترام ويعزها الكرم وتزداد فيهم صفات الكسل والأنانية وتتفشى في أوساطهم المفاسد والجرائم.

اللاصدفة في التاريخ

يذهب "مونتسكيو"إلى إنكار مبدأ الصدفة في التاريخ، فسلوك البشر حيث كانوا ،تحكمه مبادئ ثابتة مشتقة من طبيعة الأشياء وأن هذه الطبيعة هي المسئولة عن كل الأسباب الخلقية والطبيعية التي تهيئ لكل مملكة تقدمها وازدهارها أو تدهورها وانهيارها.فمن طبيعة الأشياء ومن المناخ يتشكل مزاج الإنسان ونظام الأمة."فالعبودية طبع البلاد الحارة، فسادها من ثمة نظام الحكم الاستبدادي، ولا تكاد تلمح في الأمم الآسيوية جميعها علامة واحدة تدل على روح حرة ،ولن تجد في آسيا حتى مستقبلا بطولة غير بطولة العبودية فتلك كامنة فيهم " [8]؛ فالمناخ له أثره على أعضاء الجسم الإنساني وما به من عصارات وإفرازات تتحكم في سلوك الإنسان وتهيئته.

الدين من طبيعة الأشياء

يتناول "مونتسكيو"أمر الدين أيضا الذي هو عنده من طبيعة الأشياء كذلك.فأهل شمال أوربا –حسبه- أكثر ميلا للحرية والاستقلالية عن غيرهم.وقد أدى بهم ذلك إلى اختيار البروتستنتية التي لا تعترف برئيس ديني لهم فيما ظل أهل

جنوب أوربا على الكاثوليكية.أما الإسلام فيتعصب "مونتسكيو" ضده بطبيعة الحال دون محاولة منه لدراسة حقيقته وما ذلك إلا لأنه دين أهل الجنوب الذين وصمهم بكل نقيصة، فهو –عنده- يلبي احتياجات البلاد الحارة ويوافق مزاجها العكر، ولهذا يوالي الإسلام انتشاره في تلك المناطق.

إن تفسير"مونتسكيو" للتاريخ ينحى إلى العنصرية وإن سمّاها البيئة والتزم بذلك.فقد حبت البيئة ،فيما يعتقد، المناطق التي يحل بها هو وقومه كافة الفضائل البشرية، وذلك رأي مرفوض بداهة بطبيعة الحال.وقد تبع "بول فاليري"(1871م-1945م) هذا الرأي حين قال:أن الشعب الفرنسي في تكوينه الإثني والنفساني هو الصنيعة القديمة العهد لمعطى جغرافي.

لقد حددت هذه الطبيعة نوع معيشة السكان كما أنها تأثرت بالموقع الجغرافي للبد الذي أقر علاقة هذا الشعب بالشعوب الأخرى.

لا ينكر أحد أن للطبيعة أثرها الواضح في تشكيل حياة الإنسان وشخصية الشعب.والرأي رأي قديم يمتد تاريخه إلى ما قبل فترة الحضارة الإغريقية وإن أعطاه الإغريق شكله ومبناه.أجمع علماء الأحياء بأن كل كائن حي هو وليد عنصرين أساسين:التراث الإرثي والبيئة الطبيعية.فالبيئة الطبيعية تؤثر في الإنسان منذ ولادته حتى مماته.فالمناخ والأرض والأغذية تتفاعل بعضها مع بعض فتلقح عن أثر فيزيائي نفساني مباشر.وللمناخ والطوبوغرافية تأثير في تفصيل نشاط الإنسان أو إضعافه ،كما تؤثران في غذاء الإنسان وكمياته وإنتاج الثروات وتوزيعها وتنعكس بذلك تكوين طبقات المجتمع ومؤسساته السياسية.

ومن خلال ما سبق ذكره نؤكد على أن الإنسان هو العنصر الفعال الأساس في صناعة التاريخ ،وهو الفاعل أبدا وليس المفعول، وأن استجابته لعناصر الطبيعة هي التي أدت في النهاية إلى انفعاله بها وصياغة بعض جوانب شخصيته من معطياتها التي كان للإنسان أثر في توجيهها.فالإنسان هو العامل الحي المتحرك في التاريخ ،أما الأرض وما عليها فهي عنصر سكوني مفعول وليس فاعلا، وهي تنتظر يد الإنسان لتحركها وتوظفها وتأقلمها بما يوافق احتياجاته فيصنع بها التاريخ لا لتُصنع له التاريخ.وفي ذلك يقول الله تعالى:"ألم يروا أنّ الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض"[9] ، وقوله عز من قائل:"ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في الأرض".[10]

تبقى استجابة الإنسان وتعامله مع هذه البيئة المسخرة ومصادرها المتاحة .فالعوامل الطبيعية، بل والبيئة أيضا، هي مثل الجنس والوراثة وكافة الأحوال الاجتماعية والعقلية والخلقية ليست سوى إمكانات أو قيود.والقيود لا تصنع التاريخ

إنما يصنعها الإنسان الذي يعي ملابساتها ويسعى إلى تخطيها ويقيم أهدافه ويجهد في تحقيقها. بهذا الوعي العلمي والسعي العملي والقوة الأخلاقية يسهم الفرد في صناعة تاريخه الجماعي، ومن ثمة تاريخ البشرية ، فتاريخه ليس سوى حلقة من حلقات التاريخ الإنساني المترابطة بعضها ببعض.

وإذا نظرنا في الولايات المتحدة الأمريكية ،ذلك القطر الشاسع الذي يضم شتاتا من البيئات الجغرافية والمناخية، ويضم أيضا تنوعا كبيرا في المصادر الطبيعية لا نجد اختلافا حضاريا يذكر بين مختلف المناطق، ذلك لأن الإنسان عمل على تسخير المعطيات الطبيعية في تلك الرقعة السياسية وأقام فيها نظما آلية وتقنية واقتصادية متماثلة مما أدى إلى تشابه نمط الحياة في كل تلك الرقعة.وينفي هذه النظرية أيضا ويقوضها تماما ،إننا نجد –مثلا- الفحم متوفرا في مناطق عدة من العالم سخّره الإنسان في بعض المناطق فأقام فيها ثورة صناعية ،ولكنه ظل في مناطق أخرى مهملا غير مستكشف.

فلاسفة الإسلام وموقفهم من تأثير البيئة على الإنسان

استجاب بعض الفلاسفة المسلمين لتأثير البيئة على الإنسان ولكنهم لم يجعلوا منها كائنا مهيمنا على قيادة التاريخ.ويبدو أن ذلك يرجع جزئيا لتأثير التيارات الإغريقية التي تدفقت على العالم الإسلامي في العصر العباسي عبر روافد مختلفة ،كما استجاب بعض فلاسفة المسلمين كذلك لتأثير النجوم في حياة البشر.

تشير رسائل إخوان الصفا إلى تقسيم الأخلاق إلى فطرية ومكتسبة.ويعتقدون بأن الأخلاق تتأثر بعناصر ثلاثة هي: تأثير الأكوان على الجنين قبل ولادته، ولذلك ينسب كل فرد إلى نجم أو كوكب معين بحسب تاريخ ميلاده، ثم الأمزجة والطباع وتعني التكوين البيولوجي والعناصر الداخلة فيه.أما العنصر الثالث فهو تأثير الأقاليم والبيئة الطبيعية.

يرى إخوان الصفا أن الأخلاق تتأثر بالتضاريس ،فأخلاق أهل الجبل غير أخلاق أهل السهل، وأخلاق هؤلاء وأولئك غير أخلاق أهل السواحل ويذكرون ذلك في رسائلهم بالقول:" اعلم يا أخي بأن ترب البلاد والمدن والقرى تختلف وأهويتها تتغير من جهات عدة، فمنها كونها في ناحية الجنوب أو الشمال أو الشرق أو الغرب أو على رأس الجبال أو في بطون الأودية والأغوار وعلى سواحل البحار أو بشطوط الأنهار أو في البراري والقفار...والأرض ذات الرملة وأرضين السباخ السهلة والتراب اللينة بين الأنهار والأشجار والبساتين والزهر والنوار ،وأيضا فإن أهوية البلاد والبقاع تختلف بحسب اختلاف تصاريف الرياح الأربع وبحسب مطالع البروج عليها ومطارح شعاعات

الكواكب..وهذه كلها تؤدي إلى اختلاف أخلاق أهلها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وغذائهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم ..." [11]

وقد كان للفارابي أبو إبراهيم(ت 350هـ / 961م) آراء مماثلة ،فهو يعتقد أن الشيم الطبيعية هي نتاج تفاعل البيئة الطبيعية والموقع الفلكي. و ينحو المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ / 957م) هذا المنحى في التعامل مع البيئة حين ذكر أن ما تناهى في الشمال أضرّ ببرده وقره وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام،وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان،ولذلك صار المسكون من الأرض جزءً يسيرا ،ناسب الاعتدال،وأخذ بحظه من حسن الخلقة.[12]

يبدو الأمر عند هؤلاء الفلاسفة المسلمين لا يخرج عن كونه ملاحظات فلسفية عن تأثير البيئة على الإنسان،فالتمايز الإنساني بالبيئة ناتج عن تفاعل هذا الإنسان مع البيئة التي أمره الله بالتوافق معها واستعمارها وتسخير معطياتها لصالحه.[13]

تأثير البيئة على النشاط البشري

تعتبر البيئة الطبيعية أحد المؤثرات التراث الأسطوري العربي،الذي كان مقدمة للتراث التاريخي الذي اتخذته المعرفة التاريخية العربية فيما بعد.ففي الحجاز ونجد كانت البيئة الطبيعية عبارة عن مناطق صحراوية شاسعة يندر فيها الماء والنبات ،ولذا فإن فرصة قيام مجتمعات مستقرة في هذه البيئة كانت ضئيلة ،باستثناء بعض المدن التي نشأت في بداية أمرها لتكون بمثابة محطات تجارية على طريق التجارة العالمية بين اليمن والحبشة والهند وبلاد الشرق الأقصى جنوبا،وبلاد الشام وحوض البحر المتوسط وأوربا شمالا.أما في الجنوب ،فقد عاشت العرب في السهل الساحلي الخصيب،وعلى السفوح الزراعية التي تتوفر فيها المياه.ومنذ زمن مبكر استطاع عرب الجنوب أن يشيّدوا حضارة مادية راقية.[14]

يرى ابن خلدون أن: " الفاقدين للحبوب من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم من أهل التلول المنغمسين في العيش،فألوانهم أصفى ،وأبدانهم أنقى،وأشكالهم أتم وأحسن،وأخلاقهم أبعد عن الانحراف،وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات" ،أما "أهل الأقاليم المُخْصِبَة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأَدَم والفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم"[15]

إن محاولة الربط بين ابن خلدون و مونتسكيو تعتبر خطأ؛لاستحالة القياس على ظاهر الحال،فابن خلدون تحرى في أثر البيئة على الإنسان"صاحب العقل الميزان الصحيح، فأحكامه يقينية غير أنك لا تستطيع أن تزن به أمور التوحيد

والآخرة...فالله لا فاعل غيره"، أما مونتسكيو السادر في ماديته حتى نسى الله، الغارق في عنصريته حتى أساء إلى خلق الله من غير أهله، فإنه لم يكن يرى في الإنسان إلا أنه من معطيات بيئة الطبيعة مادة وروحا.[16]

بالنسبة لـ: "مونتسكيو"، فإنه قد أدرك الفوارق بين الأمم المختلفة وحضاراتها ،ولكنه أساء فهم طبيعة تلك الفوارق، ،فبدلا أن يفسر تاريخ هذه الحضارات بالإشارة إلى العقل البشري ،راح يفسرها بأسباب الاختلاف في الظروف الجغرافية والمناخية ،فقد اعتبر الإنسان مجرد ظاهرة من ظواهر الطبيعة، ولذا فإنه يبحث عن تفسير للأحداث التاريخية وفق حقائق العالم الطبيعي، وعلى هذا يصبح التاريخ –حسب مونتسكيو- فرعا من فروع التاريخ الطبيعي أو الأنتروبولوجيا؛لأن النظم الحضارية – وفق هذا المنطلق- تعالج كآثار حتمية للظروف الطبيعية ،لا على أنها اكتشافات العقل البشري في تاريخ النماء والتطور الإنساني.

إن الصلة بين الحضارة والظروف الطبيعية التي تنشأ بين أحضانها حضارة ما لا يمكن نكرانها، ولكن الذي يحدد شخصية تلك الحضارة ليست عوامل الطبيعة في حد ذاتها، وإنما هو الإنسان الذي في مقدوره أن يتمرد ضد الظروف الطبيعية ويتحداها بل ويسخرها ،وهذا يعتمد علة نوعية ذلك الإنسان.

إن تفسير "مونتسكيو" للحضارات على أساس الظروف الطبيعية قد جانب الصواب فهو يذكر:

"لقد رأينا في قارة آسيا قيام إمبراطوريات كبرى،أما في أوربا فإن الإمبراطوريات لم تتمكن من القيام ،والسبب في هذا أن آسيا مليئة بالسهول الكبرى، كما أن البحار تفصلها إلى مساحات كبيرة، وحيث أن غالبية أرضها تقع في الجنوب،فإن مصادرها المائية تنضب بسبب شدة الحرارة ،كما أن جبالها ليست مغطاة بالسحب الكثيفة ،وأنهارها ليست متدفقة بالمياه، من هنا كانت السلطة في آسيا سلطة استبدادية ،ولولا أن الرق في هذه القارة وفير، لتطلب الحال تقسيم الأرض بين كل سكانها،وهو أمر لا تتحمله ظروف القارة الطبيعية ،أما في أوربا فإن الظروف الطبيعية قد خلقت قطاعات جغرافية ذات مساحات متوسطة تسمح بقيام دول صغيرة وقوانين خاصة بها، ومن هنا تولد الشعور بالحرية في أوربا ،وكان من الصعب على أية قوة أجنبية أن تخضع هذه المساحات لسلطانها لأنها صعبة المنال بحكم ظروفها ...أما في قارة آسيا، فإن روح العبودية تسود فيها، ولم يبرحها الرق أبدا، ففي كل بلدانها وتواريخها لا نلمس أثرا واحدا يحدث عن روح حرة، إننا لن نرى في آسيا سوى بطولة الرق" [17]

لقد وجدنا "مونتسكيو"يجعل من الظروف الطبيعية تفسيرا لتاريخ الحضارات ،ولكنه جعل العقل محايدا وهنا مكمن النقص والتقصير في إبعاد العقل الذي يُخضِع(بضم الميم) الطبيعة،ومثالنا من الوقت الراهن دولة اليابان التي قيل عنها: " تهزها الزلازل وهي تهز العالم باقتصادها" فالزلزال لا يفعل في اليابان مثلما يفعل مثلا في إيران أو أفغانستان؛ولذلك فالظروف الطبيعية يجب أن تكون طيِّعة أمام عقل الإنسان ولم يعد تأثيرها على تعاقب الحضارات في وقتنا وفي مستقبلنا كبيرا.

أرنولد توينبي وتحدي الطبيعة

ما ذكرناه سابقا يذهب إليه"أرنولد جوزيف توينبي" (1889-1975) الذي يؤمن بقانون "التحدي والاستجابة" في مولد أو تكوين الحضارة،فهو يرفض الرأي الشائع بأن الحضارة تولد في البيئات التي تتيسر فيها ظروف المعيشة للإنسان،ويرى أن مولد الحضارة عملية خلق تتضمن تغيرات حتى في عوامل الزمن نفسه.ويضرب لنا مثلا على هذا بأن للرأي السائد منذ القدم أن الحضارة قد نشأت أول ما نشأت في مصر بسبب خصوبة أرضها ووفرة مياه نيلها،ولما وصف الكتّاب الإغريق أرض مصر وصفوها على أنها"هبة النيل"،غير أن الأبحاث العلمية الجادة تشير إلى أن هذا القول ينطوي على خطأ كبير؛ذلك لأن حضارة مصر الزراعية ليست هبة من النيل بقدر ما هي حصيلة جهود الإنسان المصري الذي أقام الجسور وروّض النيل وأقام المقاييس ورصد النجوم وتوصل إلى حسابات السنة الشمسية وتقاويمها؛ أي أن الإنسان المصري هو الذي سيطر على الطبيعة وأخضعها لخدمة الأغراض الإنسانية ،ويضرب الكاتب أمثلة عديدة لتوضيح جهود الإنسان البطولية في صراعه مع الطبيعة وتحدياتها في أواسط أمريكا وفي سيلان وشمالي الجزيرة العربية وفي نيوانجلند...ويستخلص من هذه الدراسات المتتابعة أن"اليسر هو عدو الحضارة"؛أي أن الظروف الطبيعية الميسرة ليست هي التي تولد الحضارة وتفجر التقدم، وإنما العكس هو الصحيح فالظروف الطبيعية القاسية وتحدياتها هي التي تحفز الإنسان على العمل والخلق.كما يذهب إلى أن الحضارات تنشأ نتيجة التحدي الذي تفرضه الطبيعة مثل الهجرات التي كان سببها الجفاف.[18]

وإلى جانب الظروف الطبيعية القاسية يساعد انتقال الحضارة من موطنها الأصلي إلى أرض جديدة على التقدم،ويطلق "توينبي"على هذا العامل "حافز الأرض الجديدة"،ومن أمثلته الحضارة البابلية التي اكتمل كيانها في آشور،وبالحضارة الإيرانية التي اكتملت في الدولة العثمانية في آسيا الصغرى،وبالحضارة البيزنطية التي ازدهرت عندما انتقلت إلى روسيا والبلقان[19]

ويذهب المؤرخ الانجليزي "توماس بوكلي" – من أشهر دعاة التفسير الجغرافي في ق19- إلى أن المناخ والتربة والطبوغرافيا، هي العوامل التي تبيِّن ما إذا كانت حياة البشر في منطقة ما سوف تكون مزعزعة أم ثابتة، وعلى هذا الأساس رأى أن اختلاف المناخ بين كل من إنجلترا واليونان وفلسطين ومصر والهند والصين يفسر الاختلافات الواضحة في حركة التاريخ الخاصة بكل هذه الشعوب، بمعنى أن التاريخ في خطوطه العامة على الأقل هو نتاج الظروف الجغرافية السائدة في مسرح حوادثه.

-الديموغرافيا ودراسة التاريخ

الديموغرافيا: هو علم دراسة السكان من حيث نموهم ،وتناقص أعدادهم الراجع إلى أنماط الهجرة، والخصوبة ،والوفيات المتغيرة، وإلى الخصائص الرئيسية كنسبة النوع ،والبناء العمري.لذا يتم في بعض الأحيان تقسيم ميدان هذا العلم –من باب الإيضاح-إلى "علم السكان الرسمي"؛وهو المعنى بالتحليل الإحصائي الرسمي للمؤشرات والديناميات السكانية.والقسم الثاني هو "الدراسات السكانية"الذي يمثل البحث الشامل لأسباب ونتائج الأبنية السكانية والتغير الذي يطرأ عليها.

يقوم المنهج الديموغرافي على تحليل قواعد البيانات للإحصاءات الرسمية المستمدة من سجلات المواليد، والوفيات ،والزواج ،وإحصاءات التعداد السكاني.ذلك أن الهدف الأخير الذي يسعى إليه الديمغرافيون يتمثل في التوصل إلى عمل الإسقاطات السكانية ، التي لا تستهدف مجرد التنبؤ بحجم السكان خلال العقود القادمة ، وإنما تسعى علاوة على ذلك إلى التنبؤ بالبناء العمري الذي يمكن أن يمثل أمرا حيويا للسياسات الاجتماعية وسياسة سوق العمل،فعلى سبيل المثال ،إذا كان السكان المعالين (سواء الأطفال دون سن التعليم المدرسي أو كبار السن ممن تجاوزوا سن المعاش)يزيدون بالنسبة إلى عدد السكان في سن العمل الذين يعولون بقية السكان ماليا، فسيكون لتلك الأرقام دلالتها المهمة بالنسبة لفرض الضرائب، والتأمينات الاجتماعية ،والسياسة المالية.ومن هذا فإن انخفضت الأعداد المطلقة للسكان في سن العمل فإن السياسة الحكومية في هذه الحالة سوف تشجع نسبا أكبر من السكان (خاصة النساء)على الالتحاق بالعمل .وهكذا تقدم الإحصاءات والتحليلات الديموغرافية خلفية أساسية للفهم في الكثير من الدراسات الأخرى. ولعله لهذا السبب كان تعداد السكان يمثل النمط الأول الذي تم تطويره من البحوث الاجتماعية المنظمة.

ومع ذلك فإن تحليلات الإحصاءات الحيوية تعاني من بعض أنواع القصور والمشكلات فهي لا تستطيع على وجه الخصوص توفير معلومات عن الدوافع ،أو

أنساق القيم أو الأغراض والأهداف والتفضيلات التي تكمن وراء ما يطرأ من تغير على معدلات المواليد الذي يعد عاملا رئيسيا من عوامل النمو السكاني.[20]

منذ ستينات ق 20م ارتبط بالدراسات التاريخية فرع جديد وهو:"التاريخ الحضري"الذي يهتم بتاريخ المدن،و التاريخ الحضري وهو من فروع الجغرافيا ،ويرجع ظهوره إلى الاهتمام السائد حاليا بإيجاد حلول لمشاكل المدينة،ولكن جذوره تعود إلى ما حدث من تطور في الفكر التاريخي نفسه،ويهدف إلى فحص بنية المدن والمتغيرات التي طرأت عليها باعتبارها أهم ما يمكن للمؤرخ أن يدرسه ،ففي أمريكا ،وبالتالي في أوربا،كان لمدرسة "شيكاغو" في الاجتماع الحضري تأثير كبير تمثل في مجموعة من الدراسات نشرت سنة1936 تحت عنوان:"المؤرخ والمدينة"،ويمثل التاريخ الحضري عالما فريدا من المصادر والمناهج التي يسعى إليها المؤرخ المعاصر، ففيه إحصاءات ومعلومات دقيقة.[21]

دراسة الأماكن

هو من الموضوعات الهامة؛بحيث نستطيع معرفة أصول ومعاني أسماء الأماكن التي نسير فيها،وكثيرا ما يلقي هذا ضوءاً على الماضي السحيق ويظهرك على طبيعة المكان وأصله وعلى استيطانه الباكر ومميزات المنطقة جميعا.فقد تصادف اسما كلتيا يُظهرك على مستعمرة بريطانية قديمة بقيت من المستعمرات الإنجليزية[(22)]، وفيما يخص الولايات المتحدة الأمريكية فيمكن تتبع مناطق المستعمرات عبر القارة الأمريكية والأقوام المختلفة التي استعمرتها في فترات مختلفة ، وكلما تتّبع المرء عملية الاستعمار عن طريق الأسماء أحس بكيفية تضمنها حركات الأقوام الذي عمّروا قبل ذلك بألف سنة[23] ، ومن ذلك أن البَحّار البرتغالي فرديناند ماجلان(1480؟- 1521م)أول من أقام صلة بين أسبانيا والفلبين، وذلك في عام 1521م، إذ وصل إلى جزيرة سَمَر أثناء رحلته الاستكشافية الشهيرة التي كان يحاول فيها إثبات أن الأرض كروية. فأقام علاقات مع حاكم تلك الجزيرة، وبدأ في نشر النصرانية بين سُكانها، ثم تلت حملة ماجلان حملات استكشافية أخرى أطلقت إحداها اسم "الفلبين" على تلك الجزر تخليداً لملك أسبانيا فيليب الثاني[(24)] ما يعني أن هذه المنطقة استُعْمِرَت وتسميتها ليست أصيلة، تماما مثل قارة أمريكا التي نسبت للبحار والجغرافي فسبوتشي، أميريكو (1454 - 1512م). فلا يوجد شعب اسمه أمريكا بل نسبة لمستكشف، وفي أوطاننا (الجزائر مثلا) حين نبحث عن أسماء مدننا وقُرانا المحلية إلا ونجد لها أبعادا تاريخية وهذا موضوع جدير بالدراسة.

الخاتمة: من خلال مما ذكر في المقدمة من طرح للإشكال ومن خلال ما سبق ذكره من رؤى ونظريات لمفكرين من الشرق والغرب بخصوص توظيف علم الجغرافيا في تفسير أحداث التاريخ البشري وتطوراته، نجد أن الجغرافيا تعتبر – بحق- علما مساعدا لعلم التاريخ؛ فالارتباط بين الزمان والمكان ارتباط عضوي غير منفصم، فأحداث الزمان ومسيرته في البشر لم تحدث في فراغ إنما وقعت على الأرض التي تفاعل معها الإنسان عبر الزمان، وعليه فالمكان عنصر أساس في تشكيل التاريخ في ثلاثيته المكونة من (الإنسان+ الزمان + المكان)، وكم من مرة قدّم لنا المكان تفسيرات لمجرى التاريخ و أحداثه.فالمعطيات الطبيعية للمكان من طوبوغرافية ومناخية لها يد طُولَى في صناعة حدث التاريخ ،فطبوغرافيا جبال الجزائر هي التي قدّمت الحماية لثورة أول نوفمبر 1954 حيث اندلعت من جبال الأوراس، وطبوغرافية الجبل الأخضر ووديانه السحيقة هي التي مكّنت لعمر المختار(ت 1350 هـ / 1931م) في ليبيا أن يثور ضد المستدمر الإيطالي.وكان الفضل لسهول روسيا بامتدادها الشاسع الكبير، وبدرجة برودتها القاسية لكي تهزم نابليون بونابرت في عام 1812 وتقضي على طموح هتلر في عام 1941 حيث استخرج شهادة وفاته في ذلك المناخ البارد جدا.

إن الأرض هي المسرح الذي جرت فوق ركحه حوادث التاريخ، مما يجعل أعين المؤرخين تحوم حول هذا الركح وتركز عليه ،والذي بدوره تتغير فصوله وأحداثه بين حين وآخر، فالزلازل والكوارث والفيضانات والجدب والخصب وغيرها من قوى الطبيعة تولّد واقعا تاريخيا جديدا في المكان؛ ففي التاريخ القديم أدت ظروف الجدب بالجزيرة العربية إلى خروج العرب إلى الهلال الخصيب، وكان لتلك الظروف الطاردة دور في خروج العرب بعد الإسلام وانتشارهم في الأمصار.[25]أما حركة الكشوف الجغرافية ،وهي الحركة التي غيّرت وجه العالم وأدت إلى تحول كبير في حركة التاريخ في العالم ،فهي المسئولة عن إبادة عناصر بشرية بأكملها تقريبا ، ومن ذلك الهنود الحمر وهم السكان الأصليين في القارة الأمريكية. ولا يوجد من يستطيع أن يكتب عن التوسع الأوربي ما لم يكن على دراية تامة بمعالم وموارد المناطق التي تمّ اكتشافها واستدمارها واستغلالها.[26]

يمكننا أن نقر بأن التاريخ لا يقوم إلا بعلوم مساعدة أهمها الجغرافيا التي قد تفسر أنهارها وبحارها وصحاريها وجبالها وحرّها وبردها وجدبها وخفضها كثيرا من نشاطات الإنسان في التاريخ ،وتهيئ فهما علميا وفلسفيا لجوانب من اقتصاده وزراعاته ومنتجاته وصناعاته ،بل لثقافاته وأساطيره، وربما تعدت ذلك إلى بنية الإنسان وهيئته وخلقته ولون بشرته وطول أنفه .[27]

الهوامش

(1) عبيد ، إسحق، معرفة الماضي من هيرودوت إلى توينبي، دار المعارف، القاهرة ، 1981، ص 65.
(2) ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1431هـ / 2001م ، ص 504.
(3) نفسه ، ص 494.
(4)عبيد ، المرجع السابق، ص38 .
Charles le Brun, Dictionnre encyclopedique illustré de L'histoire De France,édition de la Seine ,2001 ,pp ; 269-2 (5)
(6) - Denis de Casabianca, Montisqieu , de l'ésprit des lois,antologie ,Flammarion, paris, 2013.
http://montesquieu.ens-lyon.fr/IMG/pdf/de-l-esprit-des-lois.pdf
(7) إبراهيم ،عبدالعزيز، عبد الغني، التاريخ،تاريخه وتفسيره وكتابته، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1420هـ /1999 ص 184.
(8) إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 185.
(9) سورة لقمان ، الآية رقم 20.
(10) سورة الحج ، الآية 65.
ابن عبد الله ، أحمد ،كتاب إخوان الصفا وخلان الوفا، د د ن، مومبي، الهند، 1305 هـ ، ص 2 .
(12) المسعودي، أبو الحسن بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1425 هـ / 2005 ، ص48.
(13) إبراهيم المرجع السابق، ص ص ، 186-187.
(14)- قاسم، عبده، فكرة التاريخ عند المسلمين، قراءة في التراث التاريخي العربي، عين للبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ، 2001، ص 64.
(15) ابن خلدون، عبد الرحمن، 1431هـ / 2001م ، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، ص 111 .
(16) إبراهيم ، المرجع السابق، ص 189.
(17)- عبيد ،المرجع السابق، ص ، 55-56 .
(18) طحطح ،فؤاد خاليد، ، في فلسفة التاريخ، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، 1430هـ / 2009، ص 98.
(19) عبيد ،المرجع السابق، ص 127.
(20) عفيفي، محمد ، منهج البحث وعلم التاريخ، د د ن، القاهرة، د س ن، ص ص، 176-177.
(21) قاسم، عبده، في تطور الفكر التاريخي، عين للبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر2004، ص 184.
(22)- راوس، أ. ل ، التاريخ أثره وفائدته، ترجمة:مجد الدين حفني ناصف، محمد أحمد أنيس، الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية، القاهرة 1967، ص 197.

(23) نفسه ، ص 198.

الموسوعة العربية العالمية، Global Arabic Encyclopedia الإصدار الرقمي (الإلكتروني) قرص مضغوط.

(25) إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 279.

(26)- الحويري، محمود محمد، منهج البحث في التاريخ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات2001، ص 181.

(27)إبراهيم، المرجع السابق، 2001، ص 279.